

بسم الله الرحمن الرحيم

كيف انحسر مفهوم الإسلام في نفوسنا إلى هذا الحد؟؟

كيف انحسر من مفهوم شامل للحياة البشرية في جميع اتجاهاتها ، بل مفهوم شامل - في الحقيقة - للكون و الحياة و الإنسان ، لكي يصبح مجرد عبادات تؤدي على نحو من الأنحاء ، بل لا تؤدي أحياناً إلا ((بالنية)) .. بل لا تؤدي أحياناً على الإطلاق ، لا بالنية و لا بغير النية .. ثم يظل يدور في أخلاذنا - مع ذلك - أننا مسلمون صادقوا الإسلام ؟

كيف انحسر من دستور شامل يحكم الحياة البشرية كلها و ينظمها : يحكم اقتصادياتها و اجتماعياتها ، و مادياتها و روحانياتها ، و سياستها و أفكارها و مشاعرها ، و سلوكها العملي في واقع الحياة ، لكي يصبح مجرد مشاعر هائلة لا رصيد لها من الواقع .. مشاعر تدور في نفس صاحبها - إن دارت - و هو يعيش في مجتمع غير مسلم و لا يستنكر الحياة فيه و لا يحاول تغييره . و تدور في نفسه - إن دارت - و هو ذاته لا يسلك سلوك المسلمين في حياته الخاصة و لا العامة . فتقاليده غير إسلامية ، و أفكاره غير إسلامية ، و تصوراته غير إسلامية ، و سلوكه اليومي لا يمت بصلة إلى الإسلام ، سواء في علاقة الفرد بالفرد أو الفرد بالجماعة أو الفرد بالدولة ، أو علاقة الرئيس بالمرءوس ...

كيف انحسر من حياة كاملة قائمة على مبادئ الإسلام و أفكاره و مثله و سلوكه الواقعي ، تشمل الدنيا و الآخرة و الأرض و السماء و الحاكم و المحكوم و الرجل و المرأة و الأسرة و المجتمع ، لكي يصبح جزئيات مبعثرة لا رابط بينها و لا دلالة فيها ، كالرقعة الشائثة في نسيج غير متناسق الأجزاء ؟

كيف نبتت تلك الأفكار العجيبة التي تقسم الإسلام من مشاعر من ناحية و سلوكًا عمليًا من ناحية أخرى ، ثم نفصل بين هذه و تلك ، و نتصور أن المشاعر وحدها يمكن أن تكون إسلامًا بمعزل عن السلوك ؟

كيف دار في أخلاق المسلمين أنهم يستطيعون أن يستوردوا اقتصادياتهم من أي نظام على وجه الأرض غير إسلامي ، و يستوردوا أصول مجتمعهم و قواعده من أي فكرة على وجه الأرض غير إسلامية ، و يستوردوا تقاليدهم من أي مجتمع على وجه الأرض غير مسلم ، ثم يظلوا مع ذلك مسلمين ؟!

كيف أمكن أن يتصور المسلم أنه يستطيع أن يخالف تعاليم ربه في كل شيء ، و يخون أماناته كلها، فيغش و يكذب و يخون و يخدع ، و يتجاوز المتاع المباح إلى المتعة المحرمة ، و يقبل الذلة و المهانة حرصًا على هذا المتاع ، و يخلي نفسه من تبعة إقامة المجتمع المسلم سواء بسلوكه الذاتي أو بالدعوة إلى ذلك المجتمع ، و يشارك بذلك كله في إقامة مجتمع غير مسلم ، قائم على الظلم و الانحراف و المعصية .. ثم يتصور بعد ذلك أن يضع ركعات في النهار – مخلصه أو غير مخلصه – يمكن أن تسقط عنه تبعاته أمام الله و تسلكه في عداد المسلمين ؟!

كيف أمكن أن تتصور المسلمة أنها تستطيع أن تخالف تعاليم ربها و تخون أماناته ، فتغش و تكذب و تحقد و تغتاب .. و تخرج عارية تعرض فتنها في الطرق لكل عين نهمة و جسد شهوان ، و تخلي نفسها من تبعة إقامة المجتمع المسلم ، سواء بالسلوك المستقيم في ذات نفسها ، أو بتربية أبنائها عليه ، أو بالدعوة إلى ذلك المجتمع .. و تشارك بذلك كله في إقامة مجتمع غير مسلم قائم على الظلم و الانحراف و المعصية .. ثم يدور في خلدتها بعد ذلك أن ((النية الطيبة)) في داخل قلبها يمكن أن تسقط عنها تبعاتها أمام الله و تسلكها في عداد المسلمات ؟!

من أين أتت تلك الأفكار الغربية التي تقول : ما للدين و نظام المجتمع ؟ ما للدين و الاقتصاد؟
ما للدين وعلاقات الفرد بالمجتمع و بالدولة ؟ ما للدين والسلوك العملي في واقع الحياة ؟ ما للدين
والتقاليد ؟ ما للدين والملبس - وخاصة ملابس المرأة ؟ ما للدين والفن ؟ ما للدين والصحافة و
الإذاعة و السينما و التلفزيون ؟

و باختصار .. ما للدين والحياة ؟ ما للدين والواقع الذي يعيشه البشر على الأرض ؟!
لا شك أن هناك أسباباً كثيرة لهذا ((الانحسار)) الذي يعانيه الإسلام في نفوس المسلمين .
فلم يكن كذلك المجتمع المسلم حين كان يمارس حقيقة الإسلام .
بل لم يكن كذلك المجتمع المسلم إلى عهد قريب - مع كل ما أصابه من فساد خلال القرون - إلى
ما قبل الحملة الفرنسية على وجه التحديد .

لقد بدأت الفُرقة بين مثل الدين و السلوك الواقعي مبكرة في تاريخ الإسلام .. من عهد
الأمويين مثلاً .. و لكنها كانت فرقة لا تخل بقواعد المجتمع الإسلامي في مجموعه . كانت الحكومة في
العاصمة هي التي تفسد - فساداً جزئياً - في سياسة الحكم و المال . و لكن المجتمع في غير العاصمة
ظل إلى حد كبير يمارس أصول الإسلام و قواعده ، و تحكم حياته المفاهيم الإسلامية في الكليات و
الجزئيات . و الأهم من ذلك كله أن نظام المجتمع كان يقوم على الإسلام ابتداءً ، و يستمد قوانينه كلها
من شريعة الإسلام و لا يستمدّها من أي مصدر سواه .

ثم اتسعت هذه الفرقة حين حكم الأتراك ...

و مع ذلك فقد ظل كثير من أمور المجتمع و مفاهيمه إسلامية خالصة ، و كذلك سلوكه العملي
و أخلاقه و معاملاته و تصوراته و أفكاره .

حتى كان الغزو الصليبي الأخير في القرنين الثامن عشر- والتاسع عشر- . و امتداده في القرن العشرين. و عند ذلك حدث اختلاف كبير في المجتمع المسلم .. و اختلال كبير..

و هذا الكتيب الصغير محاولة - سريعة - لتتبع هذا الخط الذي أدى إلى انحسار المفهوم الإسلامي الضخم الشامل ، لكي يصبح مجرد جزيئات مبعثرة لا رابط لها و لا دلالة فيها .. و لكي يصبح مجرد عبادات مخلصه أو غير مخلصه - بحسب أصحابها أنها الإسلام كله ، و أنهم ملاقو ربهم و قد رضي عنهم و رضوا عنه .. حتى و هو يقول لهم في كتابه العزيز إن ذلك ليس هو الإسلام كما أراده الله!

فإذا عرفنا كيف نبع هذا الانحراف و امتد .. فلعلنا نصحو إلى ما فيه من كيد .. و لعلنا نفى إلى الله و إلى أنفسنا ..

و نعود مسلمين ..

و الله الموفق إلى ما يريد ،،

مقدمة كتاب "هل نحن مسلمون"

للأستاذ محمد قطب رحمه الله

الطبعة الثالثة - ١٤٠٠ هـ ، دار الشروق